بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــــــة

من المعتاد في مقدمات الكتب أن تكون المقدمة، على وجه التقريب، إجابة عن سؤال مؤداه: لماذا هذا الكتاب؟ وإني أستميح القارئ عذرا أن أعدل عن ذلك بالإجابة عن سؤال آخر وهو: لماذا هذا الكاتب لهذا الكتاب؟ على أساس أن أجزاء كثيرة من الفصل الأول هي في الحقيقة تتضمن إجابة مستفيضة عن: لماذا هذا الكتاب؟

وقد يبدو التساؤل الجديد صورة من صور الحديث عن الذات، وهذا وإن كان أمرا حقيقيا إلا أني أؤكد للقارئ أنه وثيق الصلة "بالمنحى" الذي اتخذه الكتاب، فسوق الكتاب في البلدان الإسلامية تعرف عدة كتب تحمل العنوان نفسه (أصول التربية الإسلامية)، مما يلقى على عاتق الكاتب الجديد عبئا ومسئولية تتعلق بتحاشي تكرار الجهد المبذول، والسعي إلى تقديم الجديد.

فعندما أنشئت كلية التربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧١، شهدنا لأول مرة في مصر كلية تربية يتضمن برنامجها مقررا باسم "التربية الإسلامية"، وطلب مني عميدها في ذلك الوقت الراحل د.محمد إبراهيم كاظم تدريس هذا المقرر، وكان ذلك خاصا بمستوى الدراسات العليا (دبلوم عام+دبلوم خاص).

تقبلت المهمة وشرعت أفكر: كيف أقوم بهذا والساحة تكاد أن تكون خالية إلا من ثلاثة كتب: التربية في الإسلام، أو التعليم في رأى القاسي، وهى رسالة دكتوراه منشورة للدكتور أحمد فؤاد الأهواني، ومبادئ التربية الإسلامية، وهى رسالة ماجستير منشورة لأسماء فهمي، ثم كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب؟

ودون دخول في تفاصيل فقد شعرت بأن هذه الكتب، على الرغم من الإقرار بريادتها وجدتها، إلا أنها لا توفى بالمطلوب، فما السبيل إلى معالم مقرر جديد مناسب؟

كنا قد درسنا في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة في الخمسينيات فلسفة إسلامية، وتصوف إسلامي، وعلم كلام، ولم يخل الأمر في كل منها عن نظرات في التربية الإسلامية.لكن شعورا ما بأن هذا لا يكفى كان يغمرني.

هنا تذكرت هذا الكتاب المهم للشيخ مصطفى عبد الرازق، شيخ الأزهر الأسبق، وأستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) والذي درسناه في

الدراسات العليا بقسم الفلسفة. كان أبرز ما فيه أن الذي يريد أن يبحث عن الفكر الإسلامي الحقيقي المعبر عن العقل المسلم، فينبغي أن يبحث عنه في مجال "أصول الفقه" بصفة أساسية.

وبدأت بالفعل أقرأ عددا من كتب أصول الفقه وتولدت لدى قناعة بناء على هذا بضرورة أن نسلك طريق علماء الأصول ونحن نبني تربية إسلامية، فكان أن أنجزت دراستين، إحداهما بعنوان (مصادر التربية الإسلامية)، والثانية (مشكلة المنهج في دراسة التربية الإسلامية)، على أساس أن هاتين القضيتين حاسمتان في إنجاز المهمة.

ثم قيد الله عز وجل أن أذهب معارا إلى كلية التربية بجامعة الملك عبد العزيز (أم القرى الآن) بمكة المكرمة عام ١٩٧٥، وإذا بي أجد مقررا باسم (أصول التربية الإسلامية) لأول مرة. ثم إذا بسائر الزملاء لا يتقبل أحد منهم مهمة تدريسه، وينتهي الأمر بأن أتولى أنا هذه المسئولية...وهكذا تتأكد الصلة الأكاديمية والمهنية في مجال أصول التربية الإسلامية، وما يتصل بها من تدريس وبحث ودراسة وتأليف.

ومن هنا فما أن علمت بمشروع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وضع كتاب مرجعي جامعي في هذا المجال، بادرت بإبداء استعدادي للتصدي لهذه المهمة غير الهينة، آملا أن تشد من أزرى هذه السنوات الطوال التي زادت قليلا عن الثلاثين عاما، وسعدت أكثر أن لقيت رغبتي ترحيبا من الإخوة الأفاضل الدكاترة: عبد الحميد أبو سليمان رئيس المعهد، وفتحي ملكاوي، وعبد الرحمن النقيب.

وأنا أعي تماما أن كل هذه المقدمات، إذا كان يمكن النظر إليها على أنها بمثابة "مسوغات تعيين"، إلا أنها لا تضمن أبدا أن يجئ الكتاب بالصورة المرجوة، فنحن كثيرا ما نأمل، وكثيرا ما نحلم، وعلى الرغم مما نبذله من جهود مضنية، نشعر بأن ما أنجزناه إنما هو مجرد خطوة على الطريق، قابلة للأخذ والرد، وسبحان الله تعالى هو الكامل وحده لا شريك له.

ولأن "المفاهيم بالنسبة لأي مجال معرفي تتوقف عليها لغة التفاهم والحوار، كان علينا أن نبدأ بها جملة دراساتنا في الكتاب، خاصة ونحن بصدد مجال، على الرغم من قدم التفكير فيه، إلا أنه كنسق علمي منهجي ما زال حديثا ويكتنفه غموض في بعض المواقف وتباين في الرؤى والمرجعيات.

كذلك فقد رأينا أن الخطوة التالية لابد أن تتناول المرجعية الفكرية والعقيدية التي نستند إليها ويقوم عليها صرح الكتاب كله، ألا وهى المرجعية الفكرية الإسلامية، كما

تتبدى بصفة خاصة في القرآن الكريم، ففضلاً عن أن هذه المرجعية تشكل البنيـــة الأساســـية للكتاب فهي تحمل صدقا وصراحة مع القارئ، عندما نعلن لـــه هويتنا الفكرية منذ البداية. ويضاف إلى هذا وذاك أنها أيضا تحمل دعوة للآخرين ممن يتناولون قضايا التربية الإســـلامية بأن تكون هذه المرجعية مرجعيتهم أيضا.

ولا نظن أننا نحتاج إلى أن نسوق المبررات والحجج والأدلة التي تسوغ إفرادنـــا لكل من القرآن الكريم والسنة والنبوية فصلا أساسيا، لكن غاية ما نود التنبيه عليه هنـــا أن تناولنا لهذين الأصلين الأساسيين للتربية الإسلامية، حاولنا فيه – بقدر الإمكان – أن يكـــون مرشدا للقارئ والباحث، بكيفية التعامل معهما تربويا، أو بمعنى أصـــح، كيـــف يمكـــن أن نستنبط من كل منهما من الموجهات التربوية ما يعيننا في تنشئة الشخصية المسلمة بـــصورة تقربها من رب العالمين، وتكون قوة دفع للأمة إلى التقدم الحضاري.

وإذا كنا قد أفردنا للقرآن والسنة الفصلين الثالث والرابع، فقد أفردنا الفـــصلين الخامس والسادس لماضي الأمة الإسلامية، لا بهدف الغوص فيه والاحتكام إليه واســـتدعائه للحاضر ولكن بهدف التعامل النقدي الانتقائي معه، فنختار ما يعين على فهـــم الحاضـــر، ويرشد في بناء المستقبل، فضلا عن التعامل معه بغير هالة تقديس، في مقابل نظرة أخرى تدير له الظهر، معتبرة أنه ولى وانقضى ولا حاجة لنا بالنظر فيه.

وكان تعاملنا مع هذا الماضي من خلال مجالين، أولهما ما يتصل بعموم الحركـــة الحضارية الإسلامية، دون استغراق في تفاصيلات سياسية وعسكرية، ثانيهمـــا مـــا يتـــصل بالإرث التربوي الذي صنعته العقول الإسلامية.

ثم كان الفصل الأخير ليكون بمثابة إطلالة على عدد من المشكلات والتحديات التي تواجه الأمة في وقتنا الراهن، انسجاما مع تلك المسلمة التي تقول بأن التربية على وجـــه العموم تستمد بعض مواجهاتها بالضرورة من واقع الناس وحاضرهم، تمهيدا للانطـــلاق إلى محاولة تطلع إلى آفاق نأمل أن يتحرك واقعنا إليها مستقبلا.

وبعد، إنني وأنا أقدم هذا العمل آمل أن يكون فاتحة خير على طريـــق المعرفـــة التربوية الإسلامية، وخاصة في هذه الظروف التي يعيشها العالم أجمع والتي أحاطت الإســـلام والمسلمين والفكر الإسلامي بكثير من الشبهات الظالمة، فهذه صفحات تعلـــن أن الإســـلام عقيدة لبناء الإنسان الذي يتقى الله ويخشاه، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويتأمل ويتـــدبر، ويجادل الآخرين بالتي هي أحسن، حتى يقوم بمسئولية الخلافة عن طريق التعمير والبناء..

والله أسأل أن يسدد على طريق الحق خطانا، إنه نعم المولى، ونعم النصير.